

من وحي القرآن: عاد كعضو في المجتمع الدولي

مشاري الرويح

ذكر القرآن الكريم عدد من الجماعات البشرية موضحاً موقفاً لكل جماعة من الرسالات السماوية ونتائج تلك المواقف. تلك الجماعات، في أغلبها، كانت جماعات سياسية من خلال استيفائها جميع عناصر المجتمع السياسي من سلطة، شعب، وإقليم. ذلك لم يمنع القرآن من التعامل مع تلك الجماعات من خلال الاطار الإسلامي، أي من خلال تقييم سلوكها طبقاً لموقفها من التسليم لرب العالمين وتفسير وجودها واندثارها طبقاً لسنن الالهية متجاوزة الحالة السياسية لتلك الجماعات. بمعنى أن القرآن الكريم أعطى وركب معنى "الموقف من الوحي" على سلوك تلك الجماعة مستعلياً عن أي مجموعة من المعاني التي قد تفسر وجود وحال واندثار تلك الجماعة. على سبيل المثال، نحن لا نعلم الكثير عن النظام السياسي أو الاطار الثقافي أو الهوية السياسية لقوم عاد أو ثمود أو آل فرعون (قد نعلم عن الأخير)، ولكم ما يهمننا هنا في حكمنا على أي من تلك الجماعات هو موقفها من الوحي.

يحكي لنا الوحي أن تلك الجماعات كانت كافرة وظالمة وفاجرة. من ناحية أخرى قد يقوم عدد من باحثي التاريخ والأنثروبولوجيا بأبحاث عن تلك الجماعات تظهر لنا أن تلك الجماعات، مثلاً، كانت على درجة راقية من التحضر والتقدم في كثير من مجالات الحياة الا انهم كانوا يعبدون الأصنام أو يعبدون حكامهم... فقط. في هذا الإطار قد لا يكون الموقف السلبي من عاد، على سبيل المثال، ضروري. اذن موقفك السلبي كمسلم نحو عاد نابع عن وصول أخبارها اليك في إطار إسلامي يضع عامل الموقف من الوحي أولاً عند الحكم على واتخاذ الموقف من تلك الجماعات. بمعنى آخر لولا الإطار الإسلامي لرأينا عاد تجربة إنسانية ودرسناها من منظور انساني يقيم سلوكها الجماعي السياسي والاقتصادي والاجتماعي بمعزل عن عبادتهم الأصنام، الأمر

الذي لا يمثل أهمية كبيرة في هذا الإطار. بل وربما لتوصلنا الى أن اندثار تلك الجماعات كان بسبب ظواهر طبيعية وليس نتيجة لموقفها من الوحي وطبقاً لسنن الالهية.

السؤال الآن، ما هو معيارنا للحكم واتخاذ الموقف من الدنمارك أو هولندا، أو فنلندا، على سبيل المثال. أعلم أن الانتقال من عاد الى الدنمارك، أو من ثمود الى هولندا قد يثير البعض بسبب تجاوز طبقات وطبقات من التطور المؤسسي والحضاري بل والقيمي بين مجموعتي الجماعات. إذا بدأنا من السطح قد يرى البعض أن الدنمارك "عضو في المجتمع الدولي" ذلك الإطار التنظيمي السياسي العالمي الذي يربط الجماعات البشرية ببعضها البعض وبالتالي فإن الحكم على واتخاذ الموقف من وبالتالي العلاقة مع تلك الجماعات محكوم بقيم ومبادئ هذا التنظيم أي المجتمع الدولي. البعض قد يذهب لأعمق من ذلك أي لطبقة القومية موضحاً أن أعضاء المجتمع الدولي ووحدات الفعل السياسي فيه دول قومية وبالتالي ما تسميه جماعة سياسية نسميه اليوم دولة قومية والتي هي عبارة عن جماعة تشترك في روابط ثقافية وعرقية (أحياناً) ولغوية مرتبطة تاريخياً بإقليم جغرافي تمثلها سلطة سياسية مؤسسية ذات سيادة معترف بها دولياً، مشدداً على أن الدين لا يمثل بعد في الهوية القومية لتلك الجماعة والتي تمثلها الدولة سياسياً. هنا أحد مستويات الاستعلاء الحدائي للدولة القومية وتجاوزها للموقف من الوحي وبالتالي فإن ثنائيات: الكفر والايمان، والحق والباطل تختفي تلقائياً عند الحديث عن جماعة سياسية ممثلة بدولة قومية كالدنمارك أو هولندا. هناك مستوى أعمق أيضاً: مستوى النظام السياسي الذي يسمح بالربط بين الهوية القومية وبين مؤسسات الدولة، هنا يجب أن يسمح النظام السياسي لكل من ينتمي لتلك الهوية القومية بالمشاركة في بل وقيادة الدولة دون اعتبارات دينية. هنا مستوى آخر من الاستعلاء وتجاوز لاعتبارات الدينية ممثل في النظام الديموقراطي الذي يعتبر النظام السياسي الوحيد الذي يقوم بهذا الربط. كما نعلم، الديمقراطية لا تعمل دون دعائمها، وهنا المستوى الأكثر عمقاً لهذا البناء الذي يفصل بين المعاني المركبة على عاد وتلك المركبة على الدنمارك أو تلك المركبة على ثمود وتلك المركبة على فنلندا. تلك الدعائم هي العلمانية والليبرالية. فالعلمانية ضرورية لمنع عودة الهويات الدينية والتي، طبقاً لمنظري

الديموقراطية, يصعب حل الخلافات وتجميع المصالح بينها, الامر الذي يعتبر جوهر العملية الديموقراطية أما الليبرالية فهي ضرورية لعمل آليات الديموقراطية ومنع عودة الاستبداد خاصة الاستبداد الديني. في هذا المستوى من العمق تتجلى أعلى مستويات التجاوز والاستعلاء على معايير الحكم واتخاذ الموقف بناءً على الموقف من الوحي.

على الرغم من سمك تلك الطبقات وصعوبة الولوج خلالها الا أن الاطار الإسلامي بما في ذلك معاني وقيم ومعايير توصيف وتصنيف والحكم على واتخاذ الموقف من الجماعات السياسية بما في ذلك تلك التي اتخذت شكل الدولة القومية مازال صالحاً. ببساطة لأنه وحي من السماء يستعلي ويتجاوز المعاني الانسانية المركبة على الجماعات وسلوكها. من المجتمع الدولي حتى الليبرالية تلك معاني وأطر اجتماعية تتركب وتفكك وبالتالي قد تكون الجماعة عضو في المجتمع الدولي، دولة قومية، ذات نظام سياسي ديموقراطي، ومجتمع علماني وليبرالي لكن يبقى السؤال ما هو موقف تلك الجماعة من الوحي؟ قد يكون أحد أسباب الاستعلاء الظاهر لتلك الجماعات على هذا السؤال هو عدم رغبة أو قدرة المسلمين المعاصرين على طرح السؤال أصلاً ناهيك عن اتخاذ موقف بناءً على الإجابة. تخيل لو كانت عاد (أو جماعة سياسية تشترك مع عاد في الصفات التي جلبت لها الغضب الإلهي) عضو في المجتمع الدولي. طبقاً لأطرنا الإنسانية التي نرى من خلالها العلاقات الدولية والتي تركز على البناء الحداثي المذكور لكانت عاد شريك استراتيجي واقتصادي ولكانت بضائع عاد وأفلام عاد في أسواقنا. ببساطة لأن الاطار الذي ترى من خلاله عاد أو أشباهها اليوم لا يتضمن أي شيء سلبي على عاد.

لا يوجد فيما سبق، او لا يجب أن يفهم مما سبق، عدم الاعتراف بالتقدم الحضاري والأخلاقي للعديد من الجماعات السياسية بل وتقدير ذلك وأخذه بالاعتبار عند تحديد الموقف من التعامل معها, على أن لا يلغي ذلك الاطار الإسلامي لتوصيف الجماعات بل الأسوأ أن ترى الجماعات المسلمة نفسها من خلال هذا البناء الحداثي ثم تقبل أن يأخذ الموقف منها طبقاً لموقفها من الليبرالية.

